الغربة في قصص من فينا

بقلم باسم عبد الحميد حمودي

وصف ذو النون ايوب السياسة ـ التي عانى تجربتها منذ اعوام قليلة ـ في مجموعته القصصية الاخيرة «قصص من فينا» بأنها «عالم كنت بعيدا عنه» عالم لا يمت في اساليبه ، خلقا ، وتفكيرا ، وعملا ، الى العصر الحاضر ومدنيته بصلة ، فهو اقرب الى العالم الذي لم ير غرابة ، ولم يحرك ساكنا حينما قدم رأس يوحنا المعمدان على طبق (١) » . والواقع اننا لا نجد مناقضة صريحة بين الطريقة او المنهج الذي سار عليه ذو النون منذ اصداره اول مجاميعه في ثلاثينات هذا القرن حتى الان وبين قرفه وتوجسه وشعوره بعدم الراحة وسلبيته مع السياسة ... ذو النون التزم الادب الهادف المبني على الفكرة الانسانية الواقعية Humain Realism في جميع ما كتب (٢) وقد قلنا عنه فيما مضى « عرف الالتزام يوم لم يكن هناك التزام (٣) » ولا زلنا عند قولنا الذي نزيد عليه ان ذي النون اكبر من السياسة والاعيبها وأزماتها فهو ان خاض غمارها ارتعش عمله الادبي ولم يظهر واضحا كما نريده ولكنه ان عاش يرقبها فسيخدمها ـ ويخدم امته بالتالي ـ عن طريق فضح الاعيبها والسخرية من مفارقاتها وتوجيهها الى خدمة الصالح العام .. نرى ان موضوعنا يكاد يكون سياسيا وهذا ما لا نريده ولكن الكلام عن ذي النون يجرنا الى ذلك ... واننا لنجد في مجموعته الجديدة معنى انسانيا متعاظما جديدا يختلف نسبيا ـ لاننا لا نؤمن بالجوهر ـ عن موحيات مجاميعه السابقة التي كتبها قبل هجرته الى النمسا سنة ١٩٥٤ ورجوعه منها في نهاية ١٩٥٧ .. معنى يتسم بالالم واللوعة والسخرية الدائبة المتحشرجة التي جعلت يراعه يصر باهتزاز محموم عنيف على قرطاسه المثقل بالنار والدموع واليأس المتجاذب المتشابك مع الالم ، مبرزا لنا ارهاصات غربته وبعده عن بلاده التي احبها ، مجسما لنا شخصياتها الحياتية المعاشة بوضوح وايمان مبهرجة المضمون هادفته رغم خنقها والحافها عن الشكل الذي يطل امامنا متألما معانيا لقوة مضمونه وشدته وكثرة خنقه لانفاسه بين حين وآخر بعبارات استطرادية او كلام مدسوس يخاطب القارىء بعنف مؤذ للفنية القصصية .. احيانا .

ذو النون في غربته يذكرنا بشعراء المهجر في موحياتهم لخرائدهم والمعطيات المهموسة اللاواعية والمحفزات المثيرة لكياناتهم على اللوعة وتذوق الالم من خلال لذة الالم التي بعثت انعكاسات سخرية ديكباجوية(١) في قصص ذي النون وان هذه الذكرى لا تمنعنا من الاشارة ـ رغم ان هذا مفهوم بداهة ـ الى اختلاف فني الشعر والقصة في خصائصهما ومميزاتهما

« وأعاد النظر الى وجه جوته فخيل اليه ان الوجه الصخري يبتسم استخفافا واحتقارا . وود لو يجد من يتبادل معه الحديث وتذكر انه لا يعرف من الالمانية الا بضع كلمات منها : « يش ين اوسلاوند ... اهو غريب كما تعني هذه العبارة ؟ انه ليستنكر ..» هذه شريحة من موقف مؤثر لقصاصنا وهو في وقفته امام تمثال جوته في فينا اقتطعته مضطرا الى تشويهه وآسفا لذلك ـ من قصة المجموعة الاولى (جديد تحت الشمس) الذي يزيدها انسانية وروعة ان يتعرف ـ وهو في صمته وتأمله ـ على فتاة رومانية مشردة .. مثله ، ونحن لا يهمنا بعد ذلك من القصة ـ خصوصا وانا قد حددنا عنوان المقال بالتكلم عن معنى ومعطيات الغربة ـ ما حدث بعد ذلك ولكن الذي يثير اهتمامنا هو هذا الانسجام التام السريع المشذب الفواح بالصراحة والانطلاق الجميل بينهما ..اليس ذلك من حقهما بل من ضرورة موقفهما ما داما موحدي النكبة ـ وان اختلفت الاسباب ـ وشريدين .. غريبين ؟

وفي قصة (كافية رابيل) نجده يتقصد ان يكون هذا المقهى ميدانا لقصته هذه .. ليس من عجب في ذلك ما دامت تجمع اشتاتا ولمامات مختلفة من الغرباء .. هنغاري .. انكليزي .. وهو .. عربي ، ونحن يحفزنا تصويره الشيق لفتيات فينا اللذيذات المشدوهات الابصار امام كل فتى بل وحتى شيخ اجنبي وواقعهن التعس المنهار اقتصاديا الهادم باصرار لكل مقومات الشرف ، بل يهمنا ان نركز على اختياره (هذا الذي اشترك فيه « اناه » و «لاشعوره » وعقله الواعي) لمقهى رابيل الذي تبحث فتياته دائما عن الرومانتيكية الحالمة المظللة بسواعد الشبان.. علها تنسيهن ـ ولو لسويعات ـ لوعات الحرب الماضية ورد الفعل السايكولوجي لكل اوروبا وأناسيها ـ وهن منهن ـ الذي اعقب ذلك .

وفي (مناجاة) تجد حتميات غربة ذو النون واضحة جلية امامنا فهو رغم انتقاله من مقهى لآخر ـ وهذا دأب العراقيين جميعا فهم لا يطيب لهم قضاء امسياتهم الا في المقاهي ـ وهذه عادة عراقية بغدادية ترسبت متكلسة منتقلة معه الى فينا ـ فقد صاحب كتابا يعلمه لغة القوم الذي اضطر ان يعيش بينهم سنوات لكي يستطيع ان يتفاهم بابتهاج مع ناولة

---

(١) كلمة الاهداء في قصص من فينا

(٢) قد يرتأي البعض ان قصته « العقل في محنته » التي اصدرها عام ١٩٤٠ رمزية فنقول انها كذلك شكلا ولكن مدلولاتها مترسخة واقعا.

(٣) قصصيون من العراق : ذو النون ايوب بقلم باسم حمودي في مجلة (الورود) اللبنانية شهر ايلول ، السنة الحادية عشرة ، الجزء الاول صفحة ٢٢

(١) (الديكوباج) وهو تقطيع سيناريو الفيلم السينمائي وقد استعرنا الكلمة ناسبين اياها الى فن القصة ايضا على اعتبار ان معنى الغربة في قصص ذو النون يمر متقطعا في غير مرونة في بعضها ومركزا في بعضها الاخر .. يزداد او ينقص نتيجة مدى الفورة الشعورية ساعة كتابة القصة ومدى الراوية التي يحاول القصاص تصويرها .

المقهى الشابة (أركا) وغيرها من المخلوقات .. لكي يتخلص من ذلك الطوق الحديدي الساكن السخيف المضطرب المضروب حوله في اوليات ايامه هناك .. الصمت .. لكي يتفاهم بلغة القوم بدلا من التفاهم معهم باللغة العالمية التي يتقنها كل انسان على الارض .. لغة الاشارات التي قد تخطيء وقد تصيب .

اننا نجد في هذه القصة حشدا من العبارات والجمل المتقطعة كديكوباج سيناريو الفلم السينمائي (١) .. متقطعات من نفثات الشعراء والادباء الجرمان .. يريد بها ايوب ان يثبت لنا انه ما سافر عبثا وانه قد استفاد شيئا ثقافيا ومعطيات ادبية اكتسبها هناك وترشحت محاولة ان تثبت وجودها من خلال سيله السردي القصصي .

اما قصته التالية (هم .. طويل) فتضطرنا الى التراجع قليلا عن الضوء المتغرب الاشعث السوداوي المحاك بخطوط من نور الذي سلطناه على هذه المجموعة الايوبية ... تضطرنا الى تضخيم تلك الزاوية وتوسيعها لكي يجول ضوؤنا الكشاف النقدي في زوايا اخرى اسلوبية ومضمونية ، فذو النون يعرض امامنا مشكلة (غريب) ايضا وقد تبدو هذه المشكلة احدى مترادفات او مكررات لنفس الصور في القصص السابقة ، ولكن اهميتها تبرز عندما تتضح جذور هذه المشكلة المترسخة العميقة في شرقنا . فبطلنا جالس بين جماعة من النمساويين تكرهالسياسة تماما ويضجرها الحاح صاحبنا ـ كاي شرقي صميم ـ على التكلم بصددها .. انها مشكلته بل هي التي قلبت حياته راسا على عقب كما قلبت حياة ايوب ...

فلنسمع البطل يقول هذه الكليمات لفتاة كانت تجلس بجانبه : « اني طالب مجتهد متقدم . اتيت الدراسة على نفقة حكومتي تقديرا لقابلياتي، حتى اذا ما اجتزت نصف مرحلة الدراسة قطعت هذه الحكومة الطريق علي وطلبت مني العودة دون ان تخفي علي بأن السجن او الذلة في انتظاري .. هذا بعد ان قتلت اخي في مظاهرة عامة ، ان اهلي لا يملكون الرمق ولولا غيرة بعض اخواني ورفاقي لكنت الان هالكا او مصفدا بالاغلال » .. انه شرقي .. غريب يطلب العلم في بلاد غريبة ، وموطنه يعاني الامرين من ظروفه التاعسة المقيدة ، وقد اصابته نكبة ما عن طريق شخصي مباشر ... بأخيه وبالتالي بنفسه فهو مضطر الى التكلم بالسياسة ابدا الى ما شاء الله لانه عانى من ويلاتها كل شيء .. اما هؤلاء الغربيون فمغلفو العقول لانهم لا يعانون مثلما يعاني .. ليس من مشكلة سياسية متازمة شديدة الوطأ تخض بلادهم وتؤججها بين حين وآخر بعكس وطنه الذي ينز الما وقهرا .. اذا فهو دوما على محك اسئلة خالدة مضطربة امثال « ما المصير ؟كيف تجري الامور ؟ ما النهاية ؟! .. » انه يحس بانه هو «وابناء قومه ارقى من هؤلاء وأكثر تقدما » انه ليحلم حلما عجيبا جعله يقول « انني احلم باننا قادرون على انقاذ العالم من الكارثة المقبلة . اننا نحن الضعفاء سننقذ العالم من اكبر كارثة ، نحن الجهلة المتوحشين سنحميكم ايها السادة » وهو بلا ريب تفكير فلسفي شرقي عميق ساخر ومحكم بالسخرية اللاذعة المصبوبة على عقول الغرب السيء الفهم المغلف بالسخف نتيجة التفكير الركيك البليد الذي لا يئد بالانسانية ولا يعرف منها الا نقشها على الورق او اجترارها دماغيا ومضغها باللسان .

(١) راجع الهامش الرابع

ولعل ذو النون قد سئم الغربة بعض الشيء فانقلت منها الى قصة (دمية .. وظلام) التي تنزوي بعيدة عن اضوائنا التي نلقيها على قصص ذو النون من زاوية معينة هي الغربة .. فالقصة رومانسية غير واردة في بحثنا .

اما قصة (ايتام في عيد الميلاد) فهي تعكس لنا مأساة معبرة مخيفة ... هي تثاقل اوروبا وهي تتاهب للقيام بعد ركلة قوية من رجل هتلر على المناطق الحساسة من جسمها .. تاهب مصحوب بانهدام لاغلب النوازع والمثبتات الاجتماعية المتعارفة .. هو رد فعل عميق حتمي لويلات الهتلرية التي أضرت بالنمسا ـ الشلو الممزق من جسد اوروبا ـ اكثر من غيرها لمجاورتها اياها .

بطل القصة فتى ايراني (غريب) عن النمسا اسمه رضا .. يعشق فتاة اوسترية متعجرفة تهتم بالاتيكيت اشد الاهتمام نافخة نفسها كالطبل ... نفخا متعاظما بليدا موجعا لصاحبها الشرقي الذي يملك ارهاصا بأن هذه الزوبعة من التصرفات التي تضجره تخفي وراءها عقدة نقص هائلة .. كان يريد منها ان يرى دارها وكانت ترضى ـ ولو بعد الحاح ـ بكل ما يطلبه منها الا هذا الامر . واخيرا جاء عيد الميلاد وحدث من الملابسات ما اضطرها ان تدعوه .. الى دارها ، فرأى اوروبا دون رتوش او مساحيق مظللة متجسمة في بيتها الحقير المحشور في زقاق كئيب من ازقة فينا .. وهناك بعد ان تم التعارف قالت امها التي تهنز رأسها باضطراب رتيب نتيجة لصدمة سايكولوجية اصابتها بعد غارة جوية ، معلقة على هذا الاجتماع الغريب في ميلة عيد الميلاد (١) : « ما اغرب هذا الاجتماع ؟ طفلان امريكيان وعجوز نمساوية وسيدة هنغارية وسيد ايراني من الشرق يحتفلون بمولد السيد العظيم » .. مأساةصغيرة تكمن في هذا البيت طفلان اولدهما جندي امريكي هذه الفتاة ، وعجوز نمساوية هي امها .. وهي .. اصلها هنغاري .. ابوها من المجر قدم النمسا وشاءت تعثرات الحياة ان تزوج امها و (رضا) الشرقي الطيب الذي تقول عنه البطلة (٢): « لقد ادركت بانك تختلف عن الامريكان والاوروبيين .. ان بين جنبيك قلبا رحيما ، وربما كان ذلك لانك من ايران من الشرق ، من نفس بلد هذا الصليب » مشيرة بذلك الى صليبالمسيح النابع من الشرق ... يصر الغربيون على وصفنا بالطيبة وهي تعبير مشوه لما يقصدونه بذلك .. البلاهة ، .. لما يشاهدونه من العواطف المتدفقة المشحونة التي نعكسها امام كل حافز انساني يشجينا .

والنتيجة .. لقد اثارتنا هذه القصة لما تحويه من مشاكل متازمة متكاثفة بارزة .. ولست بمطيل فقد اوفيت ولكن الخاتمة تضطرني الى التأمل قليلا (٣) : وتقدم رضا من رناتا فرأى عينيها تضيئان كشمعتين من شموع الشجرة (٤) ومدت له ذراعيها والتقت الشفاه الاربع .. التقاء ود صميمي وتفاهم عميق » .. ارجوكم ايقظوا كبلنج شاعر الامبراطورية الشوهاء العجوز من قبره ولو رفسا باقدامكم وقولوا له : اين ما قلته من ان « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » .. قولوا له باصوات تصعقه

(١) ص ٤٩
(٢) ص ٤٤
(٣) ص ٤٩
(٤) يقصد شجرة عيد الميلاد

وتميته مرة اخرى : لقد التقيا هنا تحت ظل انسانية عارمة مدركة واعية ممتزجة بالعاطفة . ولننحدر نحو قصة اخرى . ينتقل ذو النون في قصة(عجفاء) الى منزل جديد .. غرفة في دار يسترعي انتباهه فيها شخصية عجفاء هذه وهي انسة مزمنة مع سبق الاحرار يطنب قصاصنا في وصف عاداتها وامالها والامها ، ولكن الذي يؤرقنا هو خروجه - هذا الخروج المزحوم الذي يطرب القارىء بعض الاحيان ويؤلم الناقد في كثير منها - خروجا يبلغ بها (اي القصة) حد العرض ، واذا كان لناقد ان يقول اني انا باسم عبد الحميد حمودي قد خرجت عن قواعد القصة في قصة المحروم (١) فخاطبت القارىء مباشرة فانا اعترف بأنه خطأ لا يصح ، اما النقاد الذين تفاضوا عن ذلك بالنسبة لي فلا ينبغي ان يتغاضوا عن هذا الخطأ المؤذي للفنية والذي ارتكبه طود القصة الضخم المعطاء الاشم .. ذو النون ايوب في هذه القصة .

والنتيجة .. اننا ان اردنا ان نرى شيئا يتعلق بالغربة في هذهالقصة فلا نجده الا في انتقاله من دار الى دار وهو امر لا يثيرنا في شيء.

وفي قصة (اللاجيء اللاجيء) نجد معنى الغربة متكاملا واضحا يقف كجبل ضخم امامنا يسترعي انتباهنا بشتى الطرق حتى نتحسسهونشعر به ويكتنف ارواحنا عندما نصغي الى ايوب يقول عن فينا : « لا ريب أن فين (٢) مأوى اللاجئين في عصر اللاجئين » فيأتي تداعي المعاني مثقلا بظله علينا جارا عقلنا بآفاقه الواعية واناه ولاواعيته الى مشكلتنا المصمدة المحرقة .. لاجئونا نحن .. عرب فلسطين . تصور القصة يوما عسيرا مضطرب الجو من ايام فينا يلتقي فيه لاجئان .. ايوب ولاجيء مجري في (كافيه) ما ويسري بينهما الحديث متطورا الى جدل سياسي يقتطعه في منتصفه لاجئان آخران .. (غربيان) من الجزائر ومن فلسطين .. بلدي النكبة والتحرر المتوثب ، فيزداد الجدل حدة للفشاوة المؤسفة التي تظلل عيني الهنغاري الذي يصر على ان الجزائري فرنسي .. غير عربي ، وذلك لتأثره بهزات كتف مدام ماريان .. ونحن نرى ان الحديث قد جرنا الى اشياء اخرى بعيدة عما اردنا ان نحدده في عنوان موضوعنا فحسبنا من هذه القصة هذا التعليق .

اما (المنتحرة) فتمر بالغربة مرا سريعا ليس فيها من معناها الا تطوع الغريب الى وصف قصة غرام بين شابين تنتهي بالانتحار وهذه مسألة نتركها للنقاد الذين سيبحثون من جميع الزوايا .

اما القصة الاخيرة (بدماء القلب) فهي رغم طرافتها بعيدة عما نريده .

والخلاصة .. لا زال ذو النون يستخدم السرد والسرد فقط في كتابة القصة ولا زال يتدخل في شؤون الابطال ويحركهم كيفما يشاء تحريكا نتقبله بسذاجة احيانا وبضجر احيانا اخرى ، ولكننا نجده في معظم قصص مجموعته الاخيرة هذه قد قادنا الى شعور جديد .. انساني ، لم يتح لاكثرنا ان يعانيه (٣) لبعده عن بيئته ولرتابة حياته فايوب قد اغترب سنوات خارج العراق واستوحى قصصه الاخيرة من غربته ... قصصا حارة لاهبة تذكيها مشاعره المتدفقة المرتعشة الساخرة الحاقدة على الظروف ، فصاحبه التوفيق وزاد عملقة رغم انه لم يتعب ولم يشعرنا بأنه يتعب في نحت الحرف ... ان « قصص من فينا » قد اضافت شيئا جديدا للادب العربي وحسبنا ان نختتم بحثنا بالتأكيد على هذا القول ..

بغداد **باسم عبد الحميد حمودي**

(١) انا عاطل .. وقصص اخرى لباسم حمودي .. ص ٣ وما بعدها .

(٢) فين : هي فينا كما ينطقها سكانها

(٣) عدا ضحايا فلسطيننا وجزائرنا

السجينة

*

يموت عند بابك الضياء
ويصبح الصباح في دياركم مساء
ورنة العصفور في دياركم عويل
وأنت تقبعين خلف ذلك الجدار
وظله طويل
يمتد فوق جسمك النحيل
وانت تسمعين
اباك كل يوم
يجتر كلمتين
يجتر كلمتين في الصباح والمساء
وأمك العجوز
تظل تغزل الاوهام
بمغزل الخرافة العتيق
تشيد من خيالها السحيق
عوالما رجالها وحوش
وانت والنساء كالظباء في الفلاة
وتبذر الظلام
والرعب والاوهام
في قلبك الصغير
وفي المساء
ما زلت تحلمين
بمطلع النار
وتبصرين خلف ذلك الجدار
جماعة العشاق حلف ذلك الجدار
وتقرأين في عيونهم سطور
وتعرفين من يكن في فواده الغرام
وتبسمين
وترسلين نظرة الحبيب للحبيب
وتنتهي حكاية الجدار

.....

ويطلع النهار ...
لكنما ابوك عاد للحديث
يجتر كلمتين
وامك العجوز
تردد الاوهام من خيالها السحيق
وعدت بعد حلمك الطويل
تحملقين في الجدار
يسد عن عيونك النهار

مبارك حسن الخليفة
ام درمان - السودان